الموازنات الشعريّة

لدى عبد الرحمن بن عبيدالله السقّاف ، في نقدِ شعرِ المتنبي، في كتابهِ: "العود الهِنديّ".

أ.د رمضان صالح عباد الجبوري م . م عادل اسماعيل حسن محل
كلية التربية للبنات كلية التربية للعلوم الانسانية
جامعة تكريت
قسم اللغة العربية

ملخّص البحث:

يعمل كتاب(العود الهِندِيّ)لابن عبيدالله السّقاف(١٣٠٠- ١٣٧٥هـ) ، على إجراء موازنات عدّة ، بين بيتين أو أكثر من شعر المتنبي وشعر غيره من الشعراء ؛ بناءً على إمكانيات الفنّ الشّعريّ والبناء الفنّي وجمالياتهما ، وبغضّ النّظر عن تباين مستوى الشّعراء ، وأزمنتهم وأمكنتهم .

ويسعى هذا البحث الموجز الذي خصّصناه لقضيّة نقدية محددة في إطار الموروث النّقدي ، وهي: قضية الموازنات الشعريّة بين المتنبي والشعراء إلى إبراز تلك الموازنات التي أقامها ابن عبيدالله بعقلِهِ الواعي المُدرك لحقيقة الشّعر ومفهومهِ ومبتغاه ؛ بعيداً عن التّعصّب والانحياز والانقياد لشاعرِهِ المفضّل(المتنبي) ، وتساعد النّصوص الموازَنُ فيما بينها على معرفة وجهة نظر ابن عبيدالله ، وتحديد موقعه من نقد شعر المتنبي ، لا سيّما وإنّنا قد عرفناه معجباً بشعره أيّما أعجاب ؛ إذْ جمع في مجالس متعدّدة ، عدداً لا يُستهانُ بهِ مِنْ أبياته الشّوارد الخوالد ؛ موازناً ومفاضلاً فيما بينها ، وهذا ما يُحَدِّدُ لنا على وجه الدّقّة موقع ابن عبيدالله

من الحركة النّقديّة حول المتنبي ، ومدى إسهامه فيها ؛ من خلال المقايسة والمقارنة مع شعر غيره ، وبيان الحكم في الأفضلية .

موازنات ابن عبيدالله:

شُغِلَ ابن عبيدالله - في كتابه(العود الهِندِيّ) - كثيراً بالمفاضلة بين شعر المتنبي وغيره من الشعراء ، وجُلّ ما في كتابه، يهتمّ بهذه القضيّة، وتناول نماذج عدّة من الموازنات ، فضلاً عن إنهائه مجالس كتابه: (العود الهِندِيّ) بالتّنظير للموازنة وأحكامها ، إذْ بحَث في قضيّة المفاضلة بين الشّعراء ، عادّاً إيّاها (معضلةً) على حدّ قوله ؛ لما تحتويهِ هذه القضية من تباينٍ في الثقافات والمذاهب واختلاف في الأزمنة وتفاوت في الغايات ، وعوائق كثيرة ؛ تحول دون الوصول إلى حكمٍ منطقيٍّ سليمٍ ، في تقديم شّاعرٍ على غيره من الشعراء ، ويرى أنّ تَحَرِّي الحقيقة في الحُكْمِ بين الشُّعراء ، هو مِمّا لا يُتَوَصَّلُ فيهِ إلى مَحْضِ اليقين ، وَكلُّ ما يَقَعُ في هذا ، فهو على سبيل الاجتهاد الشّخصيّ والتّقريب البعيد، إذْ قالَ:((كثيراً ما يَجولُ البحثُ في المُفاضَلَةِ بين الشّعر والشّعراء ؛ فَيذْهَبُ بي العَجَب أقصاهُ مِنْ إدلاءِ كُلٍّ برأيِهِ ، وَرَجْمِهِ بِظَنِّهِ ، وَتَعَصُّبِهِ لِهواهُ ، دونَ قَبَسٍ مِنْ هُدىً ولا بَصيرَةٍ مِنْ عِلْمٍ ، كأنّهم أَوَّلُ مَنْ يَتَكَلَّمُ في الفَنِّ ، وَكأنْ لَمْ تُؤَلَّفْ فيهِ الكُتُبُ وَتُقَرَّرُ المباحثَ ، وَيَغْتَرُّ بَعضَهُم بِمَن يَتَلَقّى عِلمَهُ عن الصُّحُفِ ، وَيستَوْرِدُهُ مِنْ أطرافِ المجلاّتِ ، وَيَجْعَلُ ذَوْقَهُمْ مِيْزاناً ، وأقوالَهُمْ بُرهاناً ، والحالُ: أَنْ لا اجتهادَ مَعَ وجودِ النص[1] ؛ وَقَلَّما نَجِدُ بَيْنَاً إلاّ لِنَظَرِ العِلْمِ فيهِ مَجالٌ مِنْ سائرِ نَواحِيهِ ؛ فَلْيَزِنْهُ بِقواعِدِ الفَنِّ الّتي تُطيشُها مَثاقيلُ الذَّرّ مَنْ يَلُمُّ بِهِ ؛ وإلاّ فَلْيَقِفْ عِنْدَ حَدِّهِ ، وَلِيَرْبَعْ على ظِلْعِهِ ، ولْيتأخَّرَ حيثُ أَخَّرَهُ القَدَرُ ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ ، {الإسراء:٣٦}))[2] .

واتّخذ ابن عبيدالله من قضية الموازنات الشعرية التي سبقته ؛ منهجاً نقديّاً تعامل به مع النصوص ؛ موضع الدراسة والمتابعة تعاملاً جادّاً وفاعلاً ؛ وكان هدفه من منها ؛ بيان الجيّد من غير الجيّد ، بموازنتها مع ما هو قريب منها من أبيات ، وله تعليقاتٌ تنّوعت بين مخالفةٍ ومعارضةٍ وموازنةٍ ومقارنةٍ بين النصوص الشعرية على اختلاف أغراضها ومقاصدها ومعانيها ومظانّها ، ولكنّه اكتفى أحياناً بلفت النّظر إلى ما يقارب معنى المتنبي من معاني الشعراء ، وَأكّدَ في أحيانَ أُخَر على فضل المتنبي عليهم ، أو تقصيره عنهم في الألفاظ والمعاني أو في البيان والبلاغة والتعبير ، ومن الأمثلة على موازنته بين مجموعة نصوصٍ شعريّةٍ ما وقفنا عليه من نماذج وردت عَرَضاً أثناء حديثه في المفاضلة بين أبيات الشعراء عامّةً أو بين أبيات الشاعر الواحد[٣] .

ففي المفاضلة بين قول ابن الفارض وبين بيت البوصيريّ، القائل:

فمبلغ العلم فيهِ إنّه بشرٌ وإنّه خيرُ خلقِ الله كلّهِمِ

قال ابن عبيدالله:((مازالت الأدباء تُفاضِلُ بينه وبين قولِ ابن الفارض[٤] :

وعلى تفنُّنِ واصفيهِ بوصفِهِ يفنى الزّمانُ وفيهِ مالَم يوصَفِ

ومنهم من يُرجّحُ الأوّل [٥] ؛ لاقتضائِهِ أنّ العِلمَ لا يَصِلُ كُنْهَ صفتهِ(ﷺ)؛ إذْ صارَ كأنّه استجمَع فضيلةَ كلّ فاضلٍ ، وزادَ ، والحال: أنّ ذكرَ فضل سائر الفضلاء ، بلهَ[٦] الزيادة عليه لا يُحصى في أزمنةٍ ، فضلاً عن الزّمان الواحد ؛ فالأمر أكثر من قول النّاظم [٧] :

لو نِيطَتْ الدّنيا بِأُخرى مِثلِها لَعَمَمْنَها[٨] وَخَشِيْنَ أنْ لا تَقْنَعَا))[٩]

إذْ فاضل بين البيتين السابقين ، وذهب إلى أنّ هنالك من رجَّحَ البيت الأوّل(فمبلغ العلم فيهِ إنّه بشرٌ...) ؛ لاقتضائِهِ أنّ العِلمَ لا يَصِلُ كُنْهَ صفتهِ [١٠] ؛ وصارَ كأنّه استجمَع فضيلةَ كلّ فاضلٍ وزادَ عليها ، غيرَ أنّ هذا البيت لم يرضِ بعض المتصوّفة ؛ لنّصه على بشريته ﴿ﷺ﴾، وأنّها منتهى العلم فيه، وأَحَسَّ بعضهم بشدّة

غُلوّ هذا البيت ، وحاولوا تخفيفه ، وقد أكّدَ ابن عبيدالله على أنّ مسألةِ الحكم بأفضل الفضلاء ، أو الزيادة عليه ، أمرٌ صعبٌ ، والبتُّ بهِ شبه مستحيلٍ ، ولا يمكن أنْ التّوصّل إليهِ مطلقاً ، لا في زمانٍ واحدٍ ، ولا في أزمنة متعددةٍ .

وممّا جاء من مفاضلات بين المتنبي وغيره ؛ ما عرَضَت له وهو يشرح شعر ديوانه، وضمّنها في كتابه، وقوفه في مجالسهِ على قَول أبي الطيّب المتنبي[١١] :

أَبْلَى الْهَوَى أسَفاً يَوْمَ النَّوَى بَدَني وفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ

قال ابن عُبيدالله معلّقاً:((وَقولُهُ[١٢] :

وفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ

وهو متَداوَلٌ كَسابِقِهِ؛إلاّ أنّهُ أَقَلُّ ابتِذالاً وَأَحسَنُ منالاً منهُ قولُ الوزيرِالمُهَلَّبي[١٣] :

تصارمت الأجفان منذ صرمتني فما تلتقي إلا على عَبْرَة تجْرِي)) [١٤]

فهو يؤكّد على أنّه بيتٌ متداوَلٌ معناه ، وهنا نقد وتكرار وتوارد خواطر في (المعنى) بدايةً، وأنّ قول المُهَلَّبي (تصارمت الأجفان منذ...) هو أَقَلُّ ابتِذالاً وَأَحسَنُ منالاً منهُ ، أي: بمعنى أنّ بيت المتنبي أَقَلُّ خَطَأً من بيت المهلبي ، ولا يرتقي إليهِ في الصورة والمعنى ، لأسبابٍ فنيةٍ وليست اعتباريةٍ، وكان نقده معتمداً على استعمال مصطلحات:(التّداول ، والابتذال ، وأقلّ ، وأحسنُ منالاً ... وغيرها) ، الّتي يدلّ كلٌّ منها على قيام موازنة بين شيئين ، وتفضيل أحدهما على الأخر بنسب محدّدةٍ ومتفاوتةٍ ؛ ولكن التّعليلات تبقى ذوقيّةً وجزئيّةً ومختصرةً .

ونجده في الموازنة بين بيت أبي الطيب المتنبي ، القائل[١٥] :

غُصْنٌ عَلى نَقَوَيْ فَلاةٍ نَابِتٌ شمسُ النّهارِ تُقِلُّ لَيلاً مُظْلِمَا

وبيتِ كعبِ بن زهير يمدحُ الرّسول(ﷺ) [١٦] :

تَحْمِلُه الناقَةُ الأَدْماءُ مُعْتَجِراً بالبُرْدِ كالبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ الظُّلَمِ

قَدْ أكّدَ على جملة معطيات ، ومعايير عِدَّة ؛ رآها بعينِ النّاقد المتفحّص للشّعر المستحسَن ، القابل للمفاضلة ؛ بقولهِ عن بيتِ كعبٍ:((وهو تشبيهٌ بليغٌ مَعَ وجودِ

الأداةِ ، وَعَدَمِ الإغرابِ ، وَقِلَّةِ النُّكاتِ ، وَمَا وَقَعَ مِنَ القَبولِ بِما هو عليهِ إلاّ مِنْ حَيثُ إنّهُ صادَفَ مَحَلَّهُ ، وكان قَبل ابتِذالِ المعنى إلى جزالةِ تركيبٍ ، وفخامَةِ لفظٍ ، وَتناسُقِ سَبْكٍ ، واتّفاقِ جِناسٍ ، وسلامةِ تعبيرٍ)) [١٧] ، وهو هنا يذهب إلى هذه الإنطباعات تأسّياً بقول الجاحظ:((ومتى شاكَلَ - أبقاك الله- ذلك اللّفظ معناه، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ؛ ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسَلِمَ من فساد التّكلف؛ كان قميناً بحُسْن الموقع)) [١٨] .

واحتكمَ أيضاً إلى المعايير السبعة لعمود الشّعر، مؤكّداً على فاعليّة التشبيه وبلاغته ، على الرّغم من وجودِ أداةِ التّشبيه(الكاف) ، وَعَدَمِ وجود الإغرابِ في هذا البيت ، وَقِلَّةِ نكاتِه ، وقَبولِهِ ، ومصادَفَتِهِ المَحَلّ ، وابتِذالِ المعنى، وجزالةِ التركيبِ ، وفخامَةِ اللّفظِ ، وَتناسُقِ السّبْكِ، واتّفاقِ الجِناسِ بين (البُرْدِ) و(البَدْرِ) ، وسلامةِ التعبير ، وأقرّ بمفهوم خصائص المعنى ، الذي لا بدّ فيه من تحقيق الشرف والصحة، والإصابة في الوصف أو(إصابة المعنى) ، أو (إصابة الغرض المنشود) وفق ما أسماها قدامة [١٩] ، والمقاربة في التشبيه، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ثم التحام أجزاء النظم والتئامها[٢٠] ، ومفهوم الشرف في المعنى هو الإغراب فيه واختيار الصفات المثلى، والصحة فيه هو السّلامة من الخطأ، ومطابقة المعنى الموضوع له في اللغة ، أمّا مفهوم الإصابة في الوصف ، فهو ذكر المعاني العامّة، والابتعاد عن المعاني المجهولة والصّفات الخاصة، ومعنى المقاربة في التّشبيه هو ما لا ينقض عند عكسهِ ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له هو ما تعارف عليه أهل اللغة في المجاز، وأما خصائص الأسلوب والنظم في الشعر فهي جودة السبك وإحكام النسج وصحة التراكيب، والتآخي بين المعاني والألفاظ فتوضع اللفظة بجوار أختها، وفخامة الأسلوب ، ثمّ عادَ مجدّداً إلى القول: ((وَبَيْتُ كعبٍ هذا اَحَدُ بيتَينِ [٢١] ، أجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ بالصّناعَةِ[٢٢] على تقديمِهما))[٢٣] ، وربّما جاءَ هذا الاستحسان؛ بسبب جودتِهِ وحُسنِ مبناه ومعناه، وما فيه من ميّزات ؛ جعلته يفاضل

بينه وبين بيت المتنبي الآنِف الذِّكْر ، بقوله:((ولا كذلك بيت النّاظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، لِخُلوِّه مِن الإغرابِ الذي لا يزال يتصيّدهُ)) [٢٤] ، وهنا – أيضاً - تأكيدٌ واضحٌ على الغرابة ، وهو جانبٌ نراه يُكرّره في أحكامه كثيراً ؛ ممّا يؤكّد لنا ، أنّه عنصرٌ مهمٌّ في نظم الشّعر ومفاضلته ؛ فضلاً عن العناصر الأخرى التي ذكرها في مجمل أحكامِهِ في كتابه،وفي المفاضلة في موضوع المدح بالجود، وفي قول أبي الطيب المتنبي[٢٥] :

يَاذَا الَّذي يَهَبُ الجَزِيلَ وَعِندَهُ أَنّي عَلَيهِ بِأَخذِهِ أَتَصَدَّقُ

قال ابن عبيدالله:((يقولُ: إنَّ ممدوحَهُ يُعطي العطاءَ الجزيلَ ، ويَرى المنَّةَ للآخِذِ)) [٢٦] ، وهنا الشّرف يعود لطالبِ المال عندما يأخذه ويقدّمه للآخرين ، ونرى فيه خلاف في طبيعة معنى البيتين ؛ ففي البيت الأوّل: عَلِمَ المُعطِي الأوّل ، بأنّه يُكرِمُ كريماً يتصرّف كتصرّف الممدوح صاحب العَطاء ؛ فأدرَكَ بأنّ الشّرف يلحقُ طالب المال ؛ لِتصدُّقِهِ بهِ ، وهنا جاءَ بمعنى (الإحسان) ، أمّا في البيت الآخر، ففيهِ طلبٌ للعطاء فقط ، ومِن حالة المُعْطَى(الفَرَح والنّشوة) بالعَطاء مع ارتياحِ المُعْطِي .

وَرَدَّ على مَن يدّعي بِأَنَّ بيت زهيرٍ ؛ القائل[٢٧] :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيْهِ الَّذِيْ أَنْتَ سَائِلُهْ

هو أمدَحُ بيتٍ قالته العرب، فقالَ:((وأراهم يطنبونَ في الثناءِ على بيتِ زهيرٍ، ويدَّعي بعضُهم أَنَّهُ أَمدحُ بيتٍ قالتهُ العربُ ، وعندي أَنَّهُ ليسَ هناكَ؛ لأَنَّ الفرحَ بالأَخذِ ليسَ في شيءٍ مِنَ الشرفِ، ففي ذكرِهِ حطٌّ مِنَ المقامِ، وتقصيرٌ بالممدوحِ، فالبيتُ بالذمِّ أَشبهُ منهُ بالمدحِ)) [٢٨] ، وَأَكّدَ على أنّ البيت ليس متفرّداً بمعناه ، وله نظائر ، فقال:((وقالوا إِنَّ أَصلَهُ قولُ زهيرٍ[٢٩] ...ويقربُ منهُ قولُ الناظِمِ[٣٠] :

تُمْسِيْ الأَمانِيُّ صَرْعَى دُوْنَ مَبْلَغِهِ فَمَا يَقُوْلُ لِشَيْءٍ: لَيْتَ ذلِكَ لِيْ)) [٣١]

فذكر ابن عبيدالله معنَيين يتّصلانِ بالمدحِ أو أنّهما يمهِّدانِ له ، ويشيرانِ إلى الغرض وهما(الندى والجود)، وسماحة الوجه ، وقد أرادَ به الكرم والعطاء، وقال في نتيجة الموازنة:((والفرقُ واضحٌ،فبيتُ الناظِمِ أَبلغُ مدحاً وأَشرفُ معنىً))[٣٢] ، وأضاف ابن عبيدالله :((أَمَّا قولُ الناظِمِ[٣٣] :

* وَعِنْدَهُ أَنِّيْ عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ *

فمِن أَبلغِ المدحِ؛ إِذْ يَشهدُ بانطباع الممدوحِ على الجودِ، فكأَنَّهُ لِمَا يجدُ مِن عظيمِ لذَّةِ الإحسانِ ؛ يرى المنَّةَ للآخِذِ؛ إِذ لَولاهُ لَمَا حصلَتْ لَهُ تلكَ اللَّذةُ)) [٣٤] .

وذهب في موضعٍ آخر في نقدِهِ بيتين آخرَين لزهير - أيضاً – إلى أنّهما((أمدحُ ما يكون بالجود، وأبلغُ ما يمكن الثّناء بالسّخاءِ ؛ لأنّ معناه: أنّهم يبذلون ويجودون على الفاقة والجهد)) [٣٥] ، أي: إنّهم يجودون في كلّ الأحوال ؛ حتى وإنْ تعذّر عليهم الرّزق ، وانعدمت لديهم وسيلة الكسب ؛ لأنّ الأقدارَ رفعتهم ومكّنتهم وفرضت عليهم السّخاء ؛ فأسرفوا في البذل حتى فاقوا السّحب والغيث .

وقال أيضاً:((ولو أنّ زهيراً قال عن ممدوحِهِ: إنّهُ يفرحُ بالبَذْلِ ، كما يفرحُ المحتاجِ بالأخذِ ؛ لأصاب)) [٣٦] ، ووَازَنَ بين قول المتنبي وقول زهير وفاضَلَ بينهما في موضوعة المدح بالجود ، وردّ على من أثنوا على بيت زهير ؛ بأنَّ الفرقَ واضحٌ بينهما ، مشيداً بِبيت المتنبي ، وكانَ مفصّلاً في تقييمِهِ لمعاني الجود وفضلِهِ وكرم الباذلين على الفاقة والجهد ، وفي قولِ أبي الطيب المتنبي[٣٧] :

أَمطِر عَلَيَّ سَحابَ جودِكَ ثَرَّةً وَانظُر إِلَيَّ بِرَحمَةٍ لا أَغرَقُ

متسائلاً : ((كيفَ يطلُبُ الغزيرَ، ثُمَّ يسأَلُ السلامَةَ مِنَ الغرَقِ؟ ولَو أَنَّهُ لَم يطلبْ إلاَّ القليل بادياً ؛ لَمَا أحتاجَ إلى الاحتراس[٣٨] ، فهوَ كطرفَةَ بنِ العبدِ في قوله[٣٩] :

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرَّبِيْعِ وَدِيْمَةٌ تَهْمِيْ

إذ لا تناسبَ بينَ قولِهِ: (غَيْرَ مُفْسِدِهَا) وقولِه:(تَهْمِيْ) [٤٠] ، وقد وقعَ جريرٌ في شرٍّ مِن ذلكَ؛ إذ فاتَهُ الاحتراس جملةً في قولِهِ[٤١] :

فَسَقَاكِ حَيْثُ حَلَلْتِ غَيْرَ فَقِيْدَةٍ هَزِجُ الرّواح وديْمَةٌ لاَ تُقْلِعُ

إِذْ لَو دامَ ما يتمنَّاهُ على أَهرامِ مصرَ؛ لَمَا صارَتْ إِلاَّ أَثراً بعدَ عَينٍ)) [٤٢] .

فهو يَقصُر مديحه على صفة الجود ؛ حتى يُغرِق في المدح على وتيرةٍ واحدةٍ - والمدح يجود كلّما أغرق في إعطاء الفضائل - بالتركيز على صفة الجود ، وتصويره بأنّه سحابة غيثٍ ومطر يسقي الأرض ؛ لما يتّصف به الممدوح من جودٍ فاق حدّ التصوّر، ثم نراه قد أغنى هذه الفكرة بالمقارنة والموازنة بين جود الممدوح وجود السّحاب ؛ حتى صار عطاء الممدوح مثل عطاء السحب التي تُوشك أنْ تُغرِقَ بالأمطار الغزيرة ؛ لكثرة ما تُغدقُ على الملأ من خيرٍ عميمٍ ، يماثل ما يُغدق به الممدوح من بذلٍ ؛ يصلُ حدّ الإغراق مجازاً ، وهو يوازن في فكرة الجود والمبالغة في العطاء استزادةً ؛ بتشبيه مكارم الممدوح بالغيث ، ويظهر من تركيز الشّاعر العربيّ في الغالب على فضيلة الجود ؛ أنّه يريد الهدايا والجوائز ، لا غير ؛ وفقاً لغاية الشعراء في طلب المكافآت والأُعطيات ومبالغتهم في تصوير صفة العطاء وبيان مكانتها وأثرها فيهم ، ونجد كثرة استعمال مثل هذه الصيغ في أغلب داووين الشعراء بعامةٍ ، وإذا كان الممدوح غريباً من جهة إسرافِهِ في العطاء ؛ كأنّه محمومٌ يُهدي المواهب، ويغرق بالكرم بخاصّةٍ .

وهنا أُجرِيَتْ الموازنة أيضاً ، بين بيتٍ للمتنبي وبيت آخر لطرفة ؛ توخَّيَا فيه مبدأ الاحتراس ، مع بيتٍ ثالثٍ لجرير ،؛ كان على عكسهما تماماً ؛ لأنّه قد فاته هذا المبدأ ، وهو مخالفٌ لرأي ابن رشيق في هذا الموضع[٤٣] ، وشدّد ابن عبيدالله على قول المتنبي:(أَمطِر عَلَيَّ سَحابَ جودِكَ ثَرَّةً)، وقوله:(وَانظُر إِلَيَّ بِرَحمَةٍ لا أَغرَقُ) ، وتسائل قائلاً: كيفَ يطلُبُ الغزيرَ، ويستدرك في طلبه السلامة والنجاة مِنَ الغرَقِ؟ ولَو أَنَّهُ لَم يَطْلُبْ إِلاَّ القليل في بادئ الأمر؛ لَمَا أحتاجَ إلى الاحتراس من نتيجة القول برمّته ، وما يؤول إليه من فيضانٍ وغرقٍ ، يؤدّي إلى عدم المقدرة على الصمود بوجه سَيلْ الجود والإكرام ؛ وقصد بهذا ، أنّه تمنّى استمرار هطول الأمطار

بغزارةٍ، ولو حدث هذا ؛ لكان مثل ما تمنّاه جرير من قبل ، في قوله: (فَسَقَاكِ ... هَزِجُ الرّواح وديْمَةٌ لاَ تُقْلِعُ) ؛ وهو يعني: الغمام الممطر الّذي لا يقشعُ ولا يقلعُ ولا يتفرّقُ[٤٤] ، وقد دعا جرير – دون قصدٍ - بالصّواعق التي تُفتّت الحجارة ، وَتُصيب الديار بالخراب ، لكنّ ابن عبيدالله تمنّى عكس هذا ؛ لأنّ للمطر درجات[٤٥] ، أهونها الرذاذ الهادئ الخفيف ، وأشدّها الوبل الصّاعق العارض الهطل (وهو المطر الكثير) الّذي يصيرُ مطراً وابلاً[٤٦] ، إذْ تَرجِمُ الأرضَ بتساقطها فوق الجبال والصلبة والأطواد والأهرامات وصخورها ؛ حتى تحيلها إلى بلقعٍ ؛ لذلك ذُمّت السّحب الغرّ في فعلها في محو الآثار وإخلافها الرّسوم والأطلال وما فيها من رملٍ وحصا .

وجاء ابن عبيدالله بأهرامات مصر مثالاً على هذا ؛ لشهرتها وقدمها وضخامتها وارتفاعها وثباتها وقوة بنائها ومتانته ، ولوقوعها في صحراء قاحلة بعيدة نسبياً عن خط المطر ، وأنّ طبيعة أرضها يابسة صلبة ، لا تَغرق بسهولة ، ولأنّها من الرسوم الشّاخصة غير المندرسة ، لا تتأثر بالمطر ولا بغيرهِ من عوامل المناخ ، فضلاً عن صعوبة زوال آثارها إلاّ بصاعق الأمطار وبالزوابع الرّعدية الشديدة المقلعة المهلكة ، وكأنّ جرير يدعو لها بالسخط والدّمار بالأمطار التي يتبع بعضها بعضاً ، بدلاً من السقيا والرحمة ، وهو خلاف لما مطلوب منه في التمنّي والدّعاء ؛ الدّعاء الّذي له نهجه المعروف المنتظم ، واتقان الأُسلوب وتقسيم المعاني بحسب الموضوعات ، وتوجيه الكلام ليحقّق غايةً وهدفاً معلومين ومحدّدَين قِدَماً .

وَعاوَدَ ابن عبيدالله إلى القول:((ومثْلُهُ قولُ الناظِمِ[٤٧] :

وَإِذَا ارْتَحَلْتَ فَشَيَّعَتْكَ سَلاَمَةٌ حَيْثُ اتَّجَهْتَ وَدِيْمَةٌ مِدْرَارُ

وقد علمَ أَنَّ المسافِرَ لا يكرَهُ شيئاً كرهَهُ لِلْمطرِ، وهوَ القائِلُ[٤٨] :

وَلَكِنَّ الْغُيُوْثَ إِذَا تَوَالَتْ بِأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ الْغَمَامَا))[٤٩]

ثمّ فاضَلَ بين ثلاثة أبياتٍ ؛ لثلاثةٍ من الشعراء المشهورين ، وهُم: (ذو الرّمة ، وطَرَفَة ، والمتنبي) ، فقال:((أَمَّا قولُ ذِي الرُّمَّةِ [٥٠] :

أَلاَ يَا أَسْلَمِيْ يَا دَارَ مَيَّ عَلَى الْبِلَى وَلاَ زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

فَلا يخرجُ عَن بيتِ طرفَةَ[٥١] ، وبيتِ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ[٥٢] ، إلاَّ أَن يجابَ بأَنَّهُ دَعا للدارِ بالسلامَةِ، وللجرعاءِ حولَها لاَ لَهَا بتوالي الغيوثِ[٥٣] ، فيكونُ مِن قولِهِ(ﷺ): (اَللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا) [٥٤]))[٥٥] .

وقد أكَّدَ على أنّ المتنبي أخذَ هذا المعنى ؛ لكنّه أخفق فيه ، بقولِهِ[٥٦] :

وَلَجُدْتَ حَتَّى كِدْتَ تَبْخَلُ حَائِلاً لِلْمُنْتَهَى، وَمِنَ السُّرُوْرِ بُكَاءُ

وذَهبَ إلى التفصيل في المبالغةِ في الإحسان ، وعلَّقَ قائلاً:((إذ لا يُتَصوَّرُ أَن ينتهيَ الجودُ إلى ضدِّهِ مِنَ الْبخلِ إلاَّ بالمَعْسرَةِ، ولا يمكنُ إرادَةُ ذلكَ، إنَّما يُتصوَّرُ مثلُ ما أَجادَهُ المعريُّ في قولِهِ[٥٧] :

لَوِ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الإِحْسَانِ زُرْتُكُمْ وَالْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلإِفْرَاطِ فِيْ الْخَصَرِ

ومِنَ المبالغَةِ في الإحسانِ، ما كانَ مِن هَرِمِ بنِ سنانٍ إلى زهيرٍ؛ فلقد آلى على نفسِهِ أَنْ لا يسلِّمَ عليهِ إلاَّ أَعطاهُ غرَّةً مِن مالِهِ، فكانَ زهيرٌ بعدَ ذلكَ يمرُّ بالقومِ فيهِم هَرِمٌ، فيقولُ[٥٨] : عِموا صباحاً خَلا هَرِماً، وخيرَكُمْ تركْتُ)) [٥٩] .

ويمضي ابن عبيدالله على الأسس السابقة فيذكر موضوعات جزئية ، تدور أغلبها حول مظاهر الحياة ومفاضلها من جودٍ ومكارم وأعطيات وما يرافقها من تمنياتٍ أو طلبٍ للعطاء ، وتشبيهها بمظاهر الطبيعة وما يتصّل فيها من أنواء وأمطار . ثم دأبَ في وصل هذه الموضوعات والربط فيما بينها ؛ حتى لتغدو من الناحية الشعورية وكأنّها موقف واحد ينقل فيه انطباعه وتصوراته ، باستعمال معيارٍ يكاد يكون واحداً - بخاصةٍ في مقايستهِ هذه - وفيما يتعلّق بالتنويع بين الموضوعات ومحاولتهِ وصل مواقفهِ وصلاً لطيفاً ؛ لتنضوي في النهاية تحت إطار واحد ، هو إطار الموازنات النقدية ، باعتماده على أسلوب الاشتراك والتضاد في محاولةٍ منه

نقد المعاني والصور والأفكار ، وهو يجمع فيها عادةً أفكاراً ومعانياً من فصيلةٍ واحدةٍ أو متقاربةٍ من الجنس نفسه ، أي: أنها تشترك في دلالتها على موضوع محدّد ، ثم وصل المعاني التي أوردها بالمعاني التي سبقتها، أو الإحالة إلى ما سيتبعها في مجالس لاحقة ، ومن هنا نجده يتقيّد بموضوعٍ واحدٍ في هذه الوقفات ، التي كانت - في الغالب - وصفاً لمظاهر الحياة وربطها بالقيم السامية .

وفي موضوع المفاضلة بين بيتين للمتنبي ، في فخره بالنّسب ، بقولهِ[٦٠] :

لا بقَوْمي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بي وَبنَفْسِي فَخَرْتُ لا بجُدودِي

قال ابن عبيدالله :((لو اقتصر على هذا البيت لكان ألأَمَ النّاسِ نسباً ؛ غير أنّه شفعه بقولِهِ[٦١] :

وبهمْ فَخْرُ كلّ مَنْ نَطَقَ الضّا ...(م).. دَ وَعَوْذُ الجاني وَغَوْثُ الطّريدِ

ثمّ قال:((إلا أنَّ هذا كان بارداً ؛ فانحَطَّ وخملَ ، بخلاف الأوَّل، فقد كان حلو اللفظ ، مليح المعنى في بابه، فسار وانتشر)) [٦٢] .

فالبيت الثاني: (وبهمْ فَخْرُ كلّ ...) – في رأيهِ- كان بارداً ؛ فانحَطّ وخَمَلَ، لمْ يَشُعَّ ويَنتشِرُ؛ لبرودتِهِ ، بخلاف الأوَّل:(لا بقَوْمي شَرُفْتُ ...) ، وَجاءَ تشديده في المفاضلة على معيار برودة البيت لفظاً ومعنىً ، مقابل حلاوة اللّفظ وملاحة المعنى، وانحطاط وخمول البيت الثاني مقابل مسير وانتشار البيت الأول .

وفي الموازنة في غرض الشفاعة باللسان وما شابَهَه ؛ وتحت قول أبي نوّاس[٦٣] :

سَأَشْكُوْ إِلَى الفَضْلِ بْنِ يَحيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَاهَـــا لَعَلَّ الفَضلَ يَجمَعُ بَيْنَنَا

الذي فضّلَه ابن عبيدالله على قول المتنبي[٦٤] :

عَلَّ الأميرَ يَرَى ذُلّـي فيَشْـفَعَ لِـيْ إلى التي تَرَكَتْنِي في الهَوَى مَثَلاَ

على الرّغم من ذِكرِهِ وموافقتِهِ رأي الشارح في أصل البيت، بقوله :((وهو من قول أبي نوَاس)) [٦٥] ؛ وذلك:((لأنَّ الجمعُ قد يكون بأنْ يُعطِيهِ ما يتوصل به إلى المحبوبة، وأمَّا الشفاعة فباللسان وذلك نوع من القيادة، كذا قال الشارح)) [٦٦] ،

وقال:((والحقُّ: أن لا غضاضة في شيء ممَّا فعله المتنبي وأبو نوّاس؛ إذ للسَّلف من مثله الكثير الطَّيب)) [٦٧] ، وَأثبت عدم اعتراضه على المتنبي من حيث المعنى ، بل إجَادَتِهِ في بعضهِ ؛ على الرّغم من إخلالهِ ببعضٍ آخر من قواعد البلاغة ، وغرابته ، وتناقضه ، في الوقت نفسه ، في هذا البيت ، مؤكّداً على:

((أنَّه بينما هو يطلب الشَّفاعة إلى المحبوب؛ إذْ انْفَلَتَ عليهِ الموضوع ؛ فَصَارَ شافِعاً، وَنَصَّبَ ممدوحَهُ للرِّيْبَةِ، وَسَلَكَ مَسْلكَ القيادة في قولِهِ [٦٨] :

لَوْ أنَّ فَنَّاخُسْرَ[٦٩] صَبَّحَكُمْ وَبَرَزْتِ وَحْدِك عاقَهُ الغَزَلُ

ما كُنْتِ فاعِلَةً وضيفُكمُ مَلِكُ المُلوكِ وشأنُكِ البَخَلُ ؟

أتمنِّعينَ قِرًى فَتَفْتَضِحِيْ؟! أم تبذُليـن لـــهُ الذي يَسَلُ ؟

بَلْ لا يَحُلُّ بِحَيْثُ حَلَّ بِهِ بُخْـلٌ ولا جـوْرٌ ولا وَجَـــلُ)) [٧٠]

ولم يكتفِ ابن عبيدالله بهذا ، بل وازَنَ بينَ بيت أبي نواس وأبيات للمتنبي في الغرض نفسه [٧١] ، وأثبَتَ تفوّق أبي نوّاس في هذا المجال.

وفي المفاضلة بين بيت الطغرائي ، القائل[٧٢] :

أدرأُ بها في نُحورِ البيدِ جافلةً مُعارضاتٍ مثاني اللُّجمِ بِالجُدَلِ

وبيت المتنبي[٧٣] :

تَبـرِي لَهُنّ نَعَـامُ الدّوّ مُسْرَجَةً تعارِضُ الجُدُلَ المُرْخاةَ باللُّجُمِ

قال عنهما ابن عبيدالله:((وقد سُئِلْتُ مرّةً عن البيت الأخير، وعن قول الطُّغرائي؛ وقيل لي، أيُّهما أفضلُ؟، فقلتُ : شَبَّهَ النّاظم خيلَهُ بِنعام الدَّوّ ، وَزَعَمَ أنّها انبَرَتْ تُعارِضُ أَزِمَّةَ الإبل بأَعِنّتِها ، والجُدُل في البيتين : جمع (جُدَيلٍ) ، وهو الزّمام ، والطغرائي جعلَ الإبلَ معارضةً ، وَجرّدَ من نفسِهِ شخصاً ؛ قالَ له: ادرأ بها، يعني: العيس المعلومة من المقام ؛ بقطع النّظر عمّا قبل البيت ؛ وهي جافلة في نحور البيد ، ودَعها تُعارِضُ بِأَزِمّتِها مثاني الخَيل ، فَهُما سواءٌ في أصل المعنى))[٧٤] .

وقال أيضاً :((وَكُلُّ مَنْ الخيل والإبل يَصْلُحُ لِأَنْ يكون الأصل في وَصفِ السّيْرِ بالسُّرعةِ والجِدِّ ؛ لأنّ الخيل معروفةٌ بِشِدَّةِ عَدْوِها ، والإبل معروفةٌ بِأَنّها أَصبَرُ منها على قطعِ المسافات البعيدة ، فَكُلّما أَرَدْتُ أنْ أَخُصَّ كلامَ أحدهما بنوعٍ من القلب ، والخروج عن مقتضى الظاهر ؛ ردّني إليهِ))[٧٥] .

فهوَ يؤكّدُ على أنّ كُلُّ مَنْ الخيل والإبل يَصْلُحُ لِأَنْ يكون الأصل في وَصفِ السّيْرِ بالسُّرعةِ والجِدِّ ؛ لأنّ كلاً منهما له خصوصيّتُهُ وقابليتُهُ ومداهُ ؛ فالخيل لها صفاتها المعروفة ، وكذلك ؛ الإبل لها صفاتها المعروفة أيضاً، وإنّهُ كُلّما أَرَادَ أنْ يخُصَّ كلامَ أحدهما بنوعٍ من القلب ، والخروج عن مقتضى الظاهر ؛ ردّه إليهِ .

وقال عن بيت المتنبي:((غيرَ أنّ في بيتِ النّاظم على التشبيه البليغ للخيلِ بالنّعامِ ثلاثة أشياءٍ: أحدها: أنّ المباراة والمعارضة واحدُ ، ثانياً : أنّ لفظة(المرخاةِ) لا تخلو عن الرّخاوة ، ثالثها: أنّ البيتَ متعلّقٌ بما قبلهُ غيرُ مستقِلٌّ بنفسِهِ ، ولفظة (لَهُنّ) فيه لا تعرِفُ من المقامِ ، فَليستْ مثل لفظة(بها) في بيت الطُّغرائيِّ ، كما قررناهُ))[٧٦] .

فقد أكّدَ في قولهِ هذا ؛ على أنّ التشبيه البليغ للخيلِ واضحٌ في بيت المتنبي ، وأنّ المباراة والمعارضة واحدُ ، وذكر الرّخاوة في الألفاظ ، ومقام البيت واستقلاله وتعلُّقٌ ، بالقياس على بيت الطُّغرائيِّ الّذي قال عنه :((ويمتازُ بيتُ الطُّغرائيّ بِأُمورٍ:أحدُها: قِيامُهُ بِذاتِهِ ، ثانيها: التجريدُ وهو حسنٌ ، ثالثُها: (نُحورُ البِيدِ) فإنّهُ بديعٌ ، رابعُها: (المثاني) فَإنّها من فرائدِ الألفاظِ ، خامسُها: ما يَحتمِلُ من الاستعارة البليغة في لفظة (ادْرَأْ)؛ إذْ لا مانع أنْ يُستَعارُ فيها مَسيلُ الأرضِ البعيدة للعَيسِ المترامية في المرامي السّحيقة))[٧٧] .

وعند إجراء الموازنة والمقارنة بين المعنى لشاعرين في بيتيهما ، شفع ابن عبيدالله استحسانِهِ لمعنى البيتين في أصلهما، وحاول أنْ يَضَعَ يَدَهُ على السّمات الفنيّة فيهما، وإعجابه بجزالة التراكيب والمعاني والفضل والسّبق فيهما ؛ لأنّه يُقَدِّمُ

بيت الطّغرائيّ لأسباب تبدو مقنعةً للمتلقّي ؛ على الرّغم من فضيلة السّبق للمتنبي في قولِهِ: (وعلى كلّ حال...) .

ثم أدلى بحكمهِ أخيراً ، في البيتين السابقَين ؛ فقال :((وعلى كُلّ حالٍ؛ فكلا البيتينِ تركيبُهُ جَزِلٌ ، ومعناهُ ضخمٌ ؛ غيرَ أنَّ بيت الطُّغرائيّ أبلَغُ وأفخَمُ وأملأُ للفمِ، وللنّاظمِ فضيلة السّبق .. والله أعلم)) [٧٨] ؛ غيرَ أنَّه فَضَّلَ بيت الطُّغرائيّ ؛ لِبلَاغتِهِ وفخامتهِ ، وَجَعَلَ للنّاظمِ فضيلة السّبق .

وفي المفاضلة في موضوع: جمع رجلٍ واحدٍ جميع الناس وتفضيلِهِ عليهم؛ قال ابن عبيدالله:((ومن المعنى أيضاً قولُهُ[٧٩] :

لكَ الخَيرُ غَيري رامَ من غيرك الغنى وغَيري بغَيرِ اللاذِقيّةِ لاحِقُ

هيَ الغَرضُ الأقصَى ورُؤيَتُكَ المنى ومَنزِلُكَ الدّنْيا وأنْتَ الخَلائِقُ

وهذا عندي أبدَعُها وأفخمُها،وأملؤُها للفَمِ،ولقد أخطأَ من فضَّلَ قول السّلاميّ[٨٠] :

فبشرتُ آمالي بشخصٍ هو الوَرى ودارٍ هي الدُّنيا ويومٍ هو الدّهرُ

ولئن كان في بيت المتنبي ضميرٌ يتعلّقُ بما قبلَهُ ، وهذا قائمٌ بِذاتِهِ ، وفيهِ زيادَةُ وَصفِ اليومِ ، فإنّ فيهِ جزالةٌ وفخامةٌ ، وحلاوةٌ وطلاوةٌ ، لا يُوازيها شيءٌ ممّا جاءَ في بيتِ السّلاميّ))[٨١] ، فقضى بالتفضيل لبيت المتنبي ؛ لأنّ فيه زيادَةُ في الوَصفِ، وفيهِ جزالةٌ وفخامةٌ ، وحلاوةٌ وطلاوةٌ ، لا يُوازيها شيءٌ ممّا جاءَ في بيتِ السّلاميّ ، بهذا يكون قد خالفَ رأي من سبقَهُ ، نحو ابن خلّكان[٨٢] ، وغيره ، في هذا البيت .

وفي الموازنة بين المتنبي وبيتٍ لذي الرِّمّة ، يقول فيه[٨٣] :

يَطيبُ تُرابُ الأَرضِ أَن يَنزِلوا بِها وَتَختالُ أَن تَعلو عَلَيها المَنابِرُ

قال ابن عبيدالله :((وبما إنّ العلم أمانةٌ، والإنصافُ واجبٌ ؛ فلا بُدَّ من الاعترافِ للنّاظم بِحُسْنِ (نظمِهِ) ؛ وذلك حيث يقول[٨٤] :

شُدُّوْا بابنِ إسحاقَ الحُسَينِ فصافحتْ ذَفـــــــــاريَها كِيرانُها والنَّمــارِقُ

بمَنْ تَقشَعرّ الأرْضُ خوفــاً إذا مشَى عليها وتَرْتَــجّ الجبــالُ الشّـــواهِقُ
فتىً كالسّحابِ الجُونِ يُخشَى ويُرْتَجى يُرَجّى الحَيا منها وتُخشَـى الصّواعقُ

أما أنّه لشعرٌ تَقِفُ لـهُ الشُّعور ، وتنشرِحُ لـهُ الصُّدورُ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَـهُ نُورًا فَمَـا لَـهُ مِنْ نُـورٍ﴾ ، {النـور: ٤٠}))[٨٥] ، مؤكِّداً علـى أنّ العِلـمَ أمانـةٌ، وإنّ الإنصافَ واجبٌ ؛ وإنّ الاعترافِ بـالحقّ فضيلة ؛ ولـذا فهو يعترِفُ للنّـاظم بِحُسْنِ (نظمِهِ) ، وَهُنا يتّضِحُ تقديرَ ابن عبيدالله لمعاني المتنبي في أبياتِهِ ، والحكم عليها من حيث الجودة والرّداءة أو الوصول إلى المعنى الدّقيق عند غيره ، وفي المفاضلة بين قول المتنبي[٨٦] :

فتًى كالسّحابِ الجونِ يُخشَى ويُرْتَجى يُرَجّى الحَيا منها وتُخشَى الصّواعقُ

وبين قول البحتري[٨٧] :

سَمَاحَــاً وَبَأسَاً كالصّــوَاعِقِ وَالحَيــَا إذا اجْتَمَعَــا في العارِضِ المُتَرَاكِمِ

قال:((فَبين البيتين شأوٌ بعيدٌ ، وفرقٌ كبيرٌ ، والذَّوقُ حاكمٌ ، والصّنعة شاهدٌ ؛ وقد اتّفَقَ لي أنْ أخذتُ بنصيبي من هذا المعنى ، فقلتُ من قصيدة[٨٨] :

قدومكم كالحيا لكن صواعقه عند العدا ، والنّدى يغشى المساكينا

ولا أُنكِرُ أنّ بيتَ المتنبي أجزلُ وأفخَمُ ؛ غير أنّ في هذا توازي العِدا والنّدى ، والإفصاح بغشيانِهِ المساكين ، وهم الّذين يراقبونَ الأنواء ، ويستمطرونَ الغمامَ ؛ بِخِلافِ غيرِهم من المترفين)) [٨٩] .

فَهو يؤكّد على أنّ بين البيتين مِن الفرق الكبير الّذي لا ينطلي ولا يخفى على صاحب الذّوق وعلى أهل الصنعة الشعرية ؛ لأنّ الصّنعة شاهده ، ويجِدُ نفسه بهذا المعنى الّذي أعجبهُ ، وقد أخذَ كُلٌّ بنصيبهِ من هذا المعنى وهوَ لا يُنكِرُ بأنّ بيتَ المتنبي أجزلُ وأفخَمُ ؛ على اختِلافِ نظرتهما إلى الموضوع نفسه .

وَهُنالك نماذج أُخرى في متن كتابه: العود الهندي ، آثرنا عدم الوقوف عليها ، واختصار أهمها ؛ والاكتفاء بما أوردناه ،

نتائج البحث:

نلاحظ في الموازنات التي استقصيناها في هذا المبحث ؛ أنّ ابن عبيدالله قد جمع بين مجموعة شعراء أفذاذ، منهم من ينتمي إلى العصر الجاهلي ، ومنهم من ينتمي إلى العصرين الإسلامي والأُمويّ ، ومنهم ينتمي إلى ما يُعرف بجيل الشعر المحدث أو المولّد ؛ ممّن ينتمون إلى شعر العصر العباسي ؛ الّذي امتازَ بالإكثارِ من استعمال أساليبِ البديع ، ومنها: المحسنات المعنوية واللفظية ، ودارَ محور الموازنات على إيجازهِ المعنى واختصارِ فحواه ، وتقديمه للمتلقّي بأقلّ الألفاظ أحياناً ، أو استرسالهِ في الكلام صفحاتٍ عدّة ، ونلاحظ أيضاً في هذه الموازنات الطويلة نوعاً ما ؛ قدرة ابن عبيدالله (النّاقد) على تتبُّعِ المعاني واستقصائِها عند الشعراء ؛ على الرّغم من المدة الزمنيّة الشاسعةِ بينه وبين كلّ واحدٍ منهم ، وتكشف موازناته عن تنوّعٍ في الملاحظات النّقديّة ، فهو يناقشُ مسائِلَ تتعلّق ببِنيَة النَّصّ الشّعريّة ، وما يتعلّق بجوانبِ القوّةِ والضّعفِ في تلك البنيةِ ، وكان موقفه من المتنبي موقف الناقد البصير، يناقشه في ما يستحق المناقشة ، ويؤيده في ما يستحق التأييد ، وهو حسن الذوق لمادّته ، عميق الفهم ، كامل الإلمام، دقيق الملاحظة والموازنة، جّيد التوجيه والتعليل ؛ لما له من سعة اطلاعٍ ؛ مكّنته من معرفة آراء السابقين والحكم عليها بعد إجراء الموازنة في ما بينها، وقد كثر استشهاده في هذا الجانب ؛ بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وبأشعار العرب ، وبأمثالهم ، وهذ يُحسبُ لهُ ، لا عليهِ .

هوامش الدّراسة:

[١] – قوله:(لا اجتهاد مع النص): قاعدة شرعية معروفة معلومة عامة في أصول الفقه أجمع الأصوليون عليها ، والنص الذي لا اجتهاد معه ؛ هو النص الصريح القطعي الدلالة ؛ لأن كثيراً من الاجتهادات تجري في ميدان النصوص الظنية الدلالة، وكثيراً منها يختلف العلماء في تفسيرها حسب اجتهاداتهم ، ينظر: الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية ، لأبي الحارث الغزّي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٤ ،١٩٩٦م: ٣٣ .

[٢] – العود الهندي عن أمالِيَّ في ديوان الكندي ، مجالس أدبيّة في ديوان المتنبي ، لعبد الرّحمن بن عبيدالله السّقّاف(ت١٣٧٥هـ)، دار المنهاج ، بيروت ، بطبعتيهِ: ط٢ ، ٢٠١٠م : ٣٩٧/٣ .

[٣] – ينظر: م . ن : ١٠٦/١-١٠٧ .

[٤] – ديوان ابن الفارض ، شرح: بدر الدّين الحسن بن محمّد البوريني وعبد الغني بن إسماعيل النّابلسي ، جمعه : رشيد بن غالب اللبناني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م :٣٠٧/١ .

[٥] – التوضيح لشرح الجامع الصحيح ، لابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري(ت٨٠٤هـ) ، تح: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث ، دار النوادر، دمشق – سوريا ، ط١ ، ٢٠٠٨م : ٤٢٥/٢ .

[٦] – (بَلْهَ): من أَسماء الأَفعال ، لها معاني عدّة ، ينظر: لسان العرب ، وغيره من معاجم اللغة العربيّة: مادة (بله) ، وهنا معناها: الاهتمام بذِكر الفضلاء حصراً ، وترك ما يحيط بالموضوع من زيادة .

[٧] – ينظر: ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح ابن عدلان (ت٦٦٦هـ) ، المنسوب إلى أبي البقاء العكبري ، والمسمى «التبيان في شرح الديوان » ، تح: د. كمال طالب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٨م م . ن : ٣٦٧/١ .

[٨] – أي: مفاخرك وفضائلك ، م . ن : ٢٦٧/٢ .

[٩] – العود الهنديّ : ٣٦٧/١ .

[١٠] – التوضيح لشرح الجامع الصحيح ، لابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري(ت٨٠٤هـ) ، تح: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث ، دار النوادر، دمشق – سوريا ، ط١ ، ٢٠٠٨م : ٦٠٥/٢٤.

[١١] – الشرح المنسوب إلى العكبري: ١٨٨/٤ .

[١٢] – م . ن ؛ والصفحة نفسها .

[١٣] – مجلة المورد، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، المجلد الثالث ، العدد الثاني،١٩٧٤م: ١٥٤ ، بحث بعنوان:(شعر الوزير المهلبي) صنعة: جابر عبدالحميد الخاقاني، الصفحات:(١٤٩–١٧٠)

[١٤] – العود الهنديّ:٩٩/١.

[١٥] – الشرح المنسوب إلى العكبري:٢٩/٤، وفي العود الهنديّ:٣٥٩/١ : (نقوا)، والأصح:(نَقَوَيْ) بالتثنيّة –أي: تثنية (نَقاً) – ووهو الكثيب من الرّمل ، في حالة الجرّ بحرف الجر.

[١٦] – لم أقف عليه فيما راجعت ، وهو مختلفٌ في نسبته بين عددٍ من الشّعراء .

[١٧] – العود الهنديّ: ١/ ٣٦٤– ٣٦٥ .

[١٨] – البيان والتبيين، لعمرو بن بحر، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ(ت٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٧ ، ١٩٩٨م : ٧/٢– ٨ .

[١٩] – نقد الشعر، لقدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج(ت٣٣٧هـ)، مطبعة الجوائب ، قسطنطينية ، ط١ ، ١٣٠٢هـ : ٣٤ .

[٢٠] – وهذه من أهم معايير عمود الشّعر، ينظر:(مقدّمة) شرح ديوان الحماسة: ٩.

[٢١] – ذَكَرَ الحاتميّ هذا البيت على رأس أحسن ثلاثة معانٍ لم يُقَل شعراً مثلها أو أحسن منها قطّ ، ينظر: حلية المحاضرة :٤٦/١ ، وذكره أيضاً ابن رشيق ، في العمدة: ١٣٦/٢ ، وغيرهما.

[٢٢] – العود الهنديّ: ٣٦٥/١ ، وأهل الصناعة: هم العلماء بالشّعر من القدماء الّذين عَدّوهُ على هذه الصيغة ، ومنهم: ابن سلام القائل:((وللشعر صناعة وثقافة، يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات)) ، طبقات الشعراء:٣، والجاحظ، وابن طباطبا ، وغيرهم ، ينظر: الحيوان:٣/ ١٣٢ ، وعيار الشعر: ٤٣-٤٥.

[٢٣] – العود الهنديّ:٣٦٥/١ .

[٢٤] – م . ن ، والصفحة نفسها .

[٢٥] – الشرح المنسوب إلى العكبري:٣٤٦/٢ .

[٢٦] – العود الهنديّ: ٢٠٠/٣ .

[٢٧] – شعر زهير بن أبي سلمى ، صنعة الأعلم الشنتمري ، تح: فخرالدين قباوة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٩٩٢م :٥٧ .

[٢٨] – العود الهنديّ:٢٠٠/٣ .

[٢٩] – البيت الذي سبق ذكره أعلاه .

[٣٠] – الشرح المنسوب إلى العكبري: ٨٨/٣ .

[٣١] – العود الهنديّ: ٢٠٠/٣-٢٠١ .

[٣٢] – م . ن ؛ والصفحة نفسها .

[٣٣] – الشرح المنسوب إلى العكبري:٣٤٦/٢ .

[٣٤] – العود الهنديّ : ٢٠٠/٣-٢٠١ .

[٣٥] – م . ن : ٣٧٥/٢ .

[٣٦] – م . ن : ٢٠٠/٣-٢٠١ .

[٣٧] – الشرح المنسوب إلى العكبري: ٣٤٦/٢ ، والعود الهنديّ: ٢٠١/٣ .

[٣٨] – هو من باب (الاحتياط)أو(التتميم) الّذي قال عنه ابن رشيق:((ومعنى التّتميم: أن يحاول الشاعر معنىً، فلا يدع شيئاً يتم به حسنه ؛ إلا أورده وأتى به: إما مبالغةً، وإما احتياطاً واحتراساً من التقصير))، العمدة: ٥٠/٢–٥١ ، وَذَكَرَ صاحبُ العمدة بيت طَرَفَة ، وَتَوَخِّي الشاعر الاحتراس في قولِهِ:(فَسَقَى...) ، ومثله قول جرير:(فسقاك ...) ؛ ممّا يدلّ على أنّ ابن عبيدالله كان مطّلعاً على ما في العمدة من آراء .

[٣٩] – ديوان طرفة بن العبد، تحقيق وتحليل ونقد: د.علي الجندي ، مطبعة الرسالة، مصر، (د. ت): ١٤٦.

[٤٠] – تَهْمِي: تسيل وتذهب ، ينظر: لسان العرب، مادة:(هَمِيَ) ، وقال الجاحظ :((وقال طرفة في المقدار وإصابته:(فسقى ديارك غير مفسدها ...) ، طلب الغيث على قدر الحاجة، لأنّ الفاضل ضارّ ، وقال النبي﴿ﷺ﴾ في دعائه: «اللهم اسقنا سقياً نافعاً»)) ، البيان والتبيين:١٩٤/١ .

[٤١] – ديوان جرير ، بشرح محمّد بن حبيب ، ذخائر العرب:(٤٣) ، تح: د. نعمان محمّد أمين طه ، دار المعارف ، مصر ، ط٣ ، (د. ت) :٢٦٨ .

[٤٢] – العود الهنديّ: ٢٢٩/٣ .

[٤٣] – رأى ابن رشيق أنّ في البيت احتراساً ، وقال:(((غير فقيدةٍ ...) تتميم لما أراد من دنوها وسقياها غير راحلة ولا ميتة ؛ إذْ كانت العادة أن يدعى للغائب الميت بالسقي؛ فاحترَسَ من ذلك))، العمدة:٥٠–٥١ .

[٤٤] – هو يُشبهُ قول المتنبي (في الشرح المنسوب إلى العكبري: ٢٤٧/٢):

غمامٌ علينا مُمطِرٌ ليسَ يُقْشِعُ وَلا البَرْقُ فيهِ خُلَّباً حينَ يلمَعُ

[٤٥] – ينظر: العلوم في ما تغنى به الشاعر؛ بعض الظواهر الطبيعية والعلمية في شعر المتنبي، للدكتور عبد الرحمن بن سعود بن ناصر الهواويّ ، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط١، ٢٠١١م: ١/١٥٨-١٧٢.

[٤٦] – على نحو ما قال المتنبي في(الشرح المنسوب إلى العكبري: ١/١٣٥) :

أظْمَتنيَ الدّنْيـا فَلَمّا جِئْتُـهَ مُسْتَسْقِياً مَطَرَتْ عليّ مَصائِبَا

[٤٧] – م . ن : ٢/٨٥ .

[٤٨] – م . ن : ٤/١٣٤.

[٤٩] – العود الهنديّ: ٣/٢٣٠

[٥٠] – ديوان شعر ذي الرّمة(غيلان بن عقبة العدويّ)، عُنِيَ بتصحيحه وتنقيحه : كارليل هنري هيس مكارنتي ، عالم الكتب ، (د. ت): ٢٠٦ .

[٥١] – البيت الّذي سبق ذكره: (أَمطِر عَلَيَّ سَحابَ...)

[٥٢] – البيت الّذي سبق ذكره أعلاه : (فَسَقَى دِيَارَكَ...)

[٥٣] – العمدة: ٢/٥٠-٥١ ، وفيها قوله: ((وقد عاب قدامة على ذي الرمة قوله: (ألا يا سلمي...))) .

[٥٤] – صحيح البخاري:٦١٤ .

[٥٥] – العود الهنديّ: ٣/٢٣٠ .

[٥٦] – الشرح المنسوب إلى العكبري: ١/٤١ ، والعود الهنديّ: ٣/٢٣٢ .

[٥٧] – سقط الزّند ، لأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ)، ترجمة وتحقيق: أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د. ت) :١٠٦ .

[٥٨] – وفيات الأعيان :٦/٢٦٤ .

[٥٩] – العود الهنديّ:٣/٢٣٢.

[٦٠] – الشرح المنسوب إلى العكبري: ١/٣٢٧ .

[٦١] – م . ن : ١/٣٢٨ .

[٦٢] – العود الهنديّ:٢/٣٦٧ .

[٦٣] – ديوان أبي نُوَاس: ٥٨٥ .

[٦٤] – الشرح المنسوب إلى العكبري :٣/١٧٥ ، وفي العود الهنديّ: ٢/٩١ ، (ضعفي) بدلاً في (ذُلِّي) .

[٦٥] – العود الهنديّ: ٢/٩١.

[٦٦] – م . ن ؛ والصفحة نفسها .

[٦٧] – م . ن : ٢/٩٢ .

[٦٨] – الشرح المنسوب إلى العكبري: ٣/٣١٨–٣١٩ .

[٦٩] – (فَنَّاخُسْر): من أسماءِ الديلَمَ ، وهو اسم عضد الدّولة البويهيّ .

[٧٠] – العود الهنديّ : ٢/١٠٨ .

[٧١] – ينظر: الشرح المنسوب إلى العكبري :٣/١٧٥ .
ديوان الطّغرائي (ت٥١٥هـ) ، تح: د.علي جواد الطاهر و د. يحيى الجبوري ، دار الحرية للطباعة والنشر ، وزارة الإعلام العراقية ، بغداد، ١٩٧٦م : ٣٠٦.

[٧٢] – ديوان الطّغرائي (ت٥١٥هـ) ، تح: د.علي جواد الطاهر و د. يحيى الجبوري ، دار الحرية للطباعة والنشر ، وزارة الإعلام العراقية ، بغداد، ١٩٧٦م : ٣٠٦.

[٧٣] – الشرح المنسوب إلى العكبري: ٤/١٥٨ .

[٧٤] – العود الهنديّ:٢/١٦٣–١٦٤ .

[٧٥] – م . ن :٢/١٦٤ .

[٧٦] – م . ن ؛ والصفحة نفسها .

[٧٧] – م . ن : ٢/١٦٤–١٦٥ .

[٧٨] – م . ن ؛ والصفحة نفسها

[٧٩] – الشرح المنسوب إلى العكبري: ٢/٣٥٧ .

[٨٠] – شعر السّلامِيّ ، أبي الحسن محمد بن عبدالله بن محمد المخزوميّ السلامي البغدادي ، (ت٣٩٣هـ) ، جمع وتحقيق: صبيح رديف ، بغداد، مطبعة الإيمان ، شارع المتنبي ، ط١، ١٩٧١م :٦٧.

[٨١] – العود الهنديّ: ١٦٦/٣ .

[٨٢] – ينظر: وفيات الأعيان : ٥٣/٤ .

[٨٣] – ديوان ذي الرّمة : ٢٥٤ .الشرح المنسوب إلى العكبري:٣٥٢/٢ – ٣٥٣،وفيها:((والذفرى: الْموضع الذى يعرق من الْبَعِير خلق الْأُذُنَيْنِ، وَالْجمع:ذفرَيات وذفارَى (بِفَتْح الرَّاء)...والنمارق:جمع نمرقة...وهي الوسادة تكون تَحت الرَّاكِب وَغَيره،والتي أَرَادَ أَبُو الطّيب هي الَّتِي تكون قُدَّام الرحل يَجْعَل الرَّاكِب عَلَيْهَا سَاقه للاستراحة إِذا أخرجهَا من الغرر،الْمَعْنى: يَقُول:لما غنوا بمدح الممدوح نشطت الْإِبِل للسير فَرفعت رؤوسها حَتَّى ضربت بذفرياتها كيرانها،وهي:جمع كور، وَهُوَ: الرحل))

[٨٤] – الشرح المنسوب إلى العكبري:٣٥٢/٢ –٣٥٣،وفيها:((والذفرى: الْموضع الذى يعرق من الْبَعِير خلق الْأُذُنَيْنِ، وَالْجمع:ذفرَيات وذفارَى (بِفَتْح الرَّاء)...والنمارق:جمع نمرقة...وهي الوسادة تكون تَحت الرَّاكِب وَغَيره،والتي أَرَادَ أَبُو الطّيب هي الَّتِي تكون قُدَّام الرحل يَجْعَل الرَّاكِب عَلَيْهَا سَاقه للاستراحة إِذا أخرجهَا من الغرر،الْمَعْنى: يَقُول:لما غنوا بمدح الممدوح نشطت الْإِبِل للسير فَرفعت رؤوسها حَتَّى ضربت بذفرياتها كيرانها،وهي:جمع كور، وَهُوَ: الرحل)) .

[٨٥] – العود الهنديّ: ١٦٦/٣ .

[٨٦] – الشرح المنسوب إلى العكبري:٣٥٣/٣ ، الجون: الأبيض والأسود .

[٨٧] – ديوان البحتري ، تح: حسن كامل الصّيرفيّ ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٩٧١م: ٣ ، والصّوَاعِقِ وَالحَيـا: المطر ، والعارِض: السحاب .

[٨٨] – ديوان ابن عبيدالله: ٤٠١ .

[٨٩] – العود الهنديّ: ٣/١٦٦-١٦٨.

ABSTRACT

The book of (AL-Aud AL-Hindi) for Ibn Obaidullah AL-Saqqaf (1300-1375 AH) focuses on the doing of several blank verse between two verses or more of AL-Mutanabi's poetry and others . In spite of the level of differentiation and their times or places .

This brief research explains the critical meaning. This matter of blank verse between AL-Mutanabi and others lead to these verses, which was written by Ibn Obaidullah in his mind , who knows for the real poetry and its conception far from the obedience for AL-Mutanabi .

These texts illustrate the point of view of Ibn Obaidullah specially in the criticism of AL-Mutanabi's poetry.

This us sets of the exact site Ibn Obaidullah In criticing AL- Mutanabi's Poetry,movement for, and the extent of the contribution; through assay and comparison with the other Poetry, and a statement of preference in judgment .